الصاعقة الثالثة عشرة: يا أخت خير أخٍ يا بنت خير أب(*)

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ ... كنايةً بهما عنْ أشرفِ النَّسَبِ

أجلُّ قدركِ أن تُسْمَيْ مُؤبّنةً ... ومن يصفْكِ فقدْ سَمّاكِ للعَرَبِ

لا يملكُ الطَّربُ المحزونُ منطقَهُ ... ودمعُه وهمًّا في قبضةِ الطربِ(١)

غدرتَ يا موتُ كم أفنيتَ من عددٍ ... بمن أصبتَ وكم أسكتَّ من لجبِ

وكم صحبتَ أخاها في منازلةٍ ... وكم سألتَ فلم يبخلْ ولم تخبِ

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ ... فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ

حتى إذا لم يدعْ لي صدقُهُ أملًا ... شرقتُ بالدمع حتى كادَ يشرقُ بي

تعثَّرتْ به في الأفواهِ ألسُنُها ... والبُرْدُ في الطُّرقِ والأقلامُ في الكتُبِ(٢)

كأن فعله لم تملأْ مَواكِبُها ... ديار بكرٍ ولم تخلعْ ولم تهبِ

ولم تردَّ حياة بعد توليهِ ... ولم تغثْ داعيًا بالويلِ والحرَبِ(٣)

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مذ نُعيَتْ ... فكيفَ ليلُ فتى الفتيانِ في حلبِ

يظنُّ أن فؤادي غيرُ ملتهَبٍ ... وأن دمعَ جفوني غيرُ مُنسكبِ

بلى وحُرمَةِ منْ كانتْ مراعيَةً ... لحرمةِ المجدِ والقصَّادِ والأدبِ

(*) مناسبة القصيدة: يعزي سيف الدولة بوفاة أخته، سنة ٣٥٢هـ.

(١) الطرب: خفة تأخذ بالإنسان من فرط الحزن أو السرور.

(٢) البرد: الرسل.

(٣) التولية: الذهاب والإدبار.

ومن مضتْ غيرَ موروثٍ خلائقُها ... وإن مضتْ يدُها موروثةَ النشبِ[١]

وهمُّها في العُلى والمجدِ ناشئةً ... وهمُّ أترابِها في اللهوِ واللعبِ

يعلمنَ حين تُحيَّا حسنَ مبسمِها ... وليس يعلمُ إلا اللهُ بالشَّنَبِ[٢]

مَسَرةٌ في قلوب الطِّيبِ مَفرِقُها ... وحرةٌ في قلوبِ البيضِ واليَلَبِ[٣]

إذا رأى ورآها رأس لابسِهِ ... رأى المقانعَ أعلى منهُ في الرُّتَبِ[٤]

وإن تكنْ خُلقتْ أنثى لقدْ خُلِقَتْ ... كريمة غيرَ أنثى العقْلِ والحسبِ

وإن تكن تغلبُ الغلباءُ عنصرَها ... فإن في الخمرِ معنى ليس في العنبِ[٥]

فليت طالعةَ الشمسين غائبةٌ ... وليتَ غائبةَ الشمسين لم تغبِ

وليت عين التي آب النهارُ بها ... فداء عين التي زالت ولم تؤُبِ

فما تقلّد باليَاقوت مُشبِهُها ... ولا تقلّد بالهنديَّةِ القُضُبِ

ولا ذكرتُ جميلاً من صنائعِها ... إلا بكيتُ ولا ودٌّ بلا سَبَبِ

قد كان كلُّ حجابٍ دون رؤيتِها ... فما قنعتِ لها يا أرضُ بالحُجُبِ

ولا رأيتِ عيونَ الإنسِ تدركُها ... فهل حسدتِ عليها أعينَ الشُّهبِ

وهل سمعتِ سلامًا لي ألمَّ بها ... فقد أطلتُ وما سلّمتُ من كثبِ

---

(١) النشب: المال.

(٢) الشنب: برد الريق.

(٣) اليلب: الدروع اليمنية المصنوعة من الجلد.

(٤) المقانع: القناع.

(٥) الغلباء: العزيزة الممتنعة. عنصرها: أصلها.

وكيفَ يبلغ موتانا التي دُفنت ... وقد يقصِّرُ عن أحيائنا الغَيبِ[١]

يا أحسن الصَّبرِ زرْ أولى القلوبِ بها ... وقلْ لصاحبِه يا أنفعَ السُّحبِ

وأكرمَ الناسِ لا مستثنيًا أحَدًا ... من الكرامِ سوى آبائك النُّجبِ

قد كان قاسَمَكَ الشخصينِ دهرُهما ... وعاشَ دُرُّهمُا المفديُّ بالذهبِ

وعاد في طَلَب المتروكِ تاركُهُ ... إنا لنغْفُلُ والأيامُ في الطَّلبِ

ما كانَ أقصرَ وقتًا كان بينهُما ... كأنهُ الوقتُ بينَ الوردِ والقَربِ[٢]

جزاكَ ربُّكَ بالأحزانِ مَغفرَةً ... فحزنُ كلّ أَخي حزنٍ أخو الغضبِ

وأنتمْ نفرٌ تسخو نُفُوسُكُمُ ... بما يهبن ولا يَسخُونَ بالسلبِ

حللتْمُ من ملوكِ الأرضِ كلِّهمِ ... محلَّ سمرِ القنا من سائرِ القصبِ

فلا تنلكَ الليالي، إنَّ أيديَها ... إذا ضربنَ كسرنَ النبعَ بالغربِ[٣]

ولا يعنّ عدوًّا أنتَ قَاهرُهُ ... فإنهنّ يصدنَ الصّقرَ بالخربِ[٤]

وإن سررنَ بمحبوبٍ فجعْنَ بهِ ... وقد أتينَكَ في الحالينِ بالعجبِ

وربما احتسبَ الإنسانُ غايتَها ... وفاجأتْهُ بأمرٍ غيرِ محتسبِ

وما قَضى أحدٌ منْها لُبانَتَهُ ... ولا انتَهى أَرَبٌ إلا إلى أربِ[٥]

---

(١) الغيب: جمع غائب.

(٢) القرب: سير الليل لورد الغد.

(٣) النبع: شجر صلب. الغرب: نبت ضعيف.

(٤) الخرب: ذكر الحباري، وهو يضرب به المثل في البلاهة.

(٥) اللبانة والأرب: بمعنى الحاجة.

تخـالفَ النـاسُ حـتى لا اتـفـاقَ لـهُـمْ إلا على شَـجَبٍ والخلفُ في الشـجبِ[1]

فـقـيلَ تَخْلُصُ نفسُ المرءِ سـالمةً وقيل تشـركُ جسمَ المرءِ في العطبِ

ومن تـفكر في الدُّنيـا ومُـهـجَـتـهِ أقـامـهُ الـفكرُ بين العَـجـزِ والتـعبِ

(١) الشجب: الهلاك. الخلف: الاختلاف.

obeikandl.com